شعر الغزل في العصر العثماني

تعددت أنواع الغزل في العهد العثماني، ونستطيع أن نميّز فيه قسمين رئيسين:

- ✓ قسم القصائد.
- ✓ قسم المقطعات.

فأمَّا قسم القصائد: فنجد بعض الشعراء يجاورن الأقدمين في معانيهم وأساليبهم، ونجد بعضهم يتغزلون في بعض قصائد المدح سواء أكان هذا المدح في عظيم أو قريب أو صديق. ونجد بعض الغزل يستقلّ بنفسه في قصائد طويلة، ونجد غزلاً طبيعياً في النساء، وغزلاً شاذاً في الغلمان، وغزلاً فيه شيء من التهتك يقال في مجالس الطرب والغناء.

وقد نجد الشاعر أحياناً يتذلل للحبيب وفق عمود الشعر العربي، وقد نجد آخر يثور فيأبى أن يذِلّ للحبيب، ويعاملُه معاملة النِدّ للند، وفي ذلك كلّه نرى أن المعاني التقليدية هي الغالبة ولكن إلى جانبها بعض المعاني الجديدة التي يستقيها الشاعر من تجارب واقعية ومن سوانحَ فكرية أو خياليّة.

فأمّا المقطعات: فقد أكثر منها شعراء هذا العصر لعدم حاجتها إلى النفَس الطويل كالقصائد، ولأنها يمكن أن تتضمن فكرة جديدة طارئة أو تجربة عابرة أو تشبيهاً طريفاً أو نكتة بديعة أو لفته عاطفية أو سانحة بديعية لفظية وتمتاز على القصائد بأنها أبعد عن التقليد

وأقرب إلى التجديد واحتواء المعاني والصور المبتكرة، وأسهل تناولاً منها على الذين يخطر لهم أن ينظموا الشعر من غير المحترفين.

وتتناول المقطعات غالباً إمّا الحديث في عاطفة الحب بصورة مجملة من غير تفصيل أو الحديث في نواحٍ جزئية من الجمال أو الإحساسات والتجارب مثل الحديث عن الثغر والريق والخد المختضِب.

ونلاحظ من حيث الأسلوب والشكل أن بعض الشعراء قد عارضوا قصائد مشهورة لسابقيهم، وأحياناً لمعاصريهم، وربما كان أرقّ الشعراء غزلاً في هذا العهد هو ابن النقيب ويعد مثالاً على شعراء الغزل الممتازين في هذا العهد.

وسنعرض بعض الأمثلة على الأنواع الغزلية التي تحدثنا عنها، فمما جارى به شعراء هذا العهد الأقدمين قول البوريني:

وكنّا كغصنّي بانةٍ قد تألَّقا ... على دوحةٍ حتى استطالا وأينعا

يغنّيهما صَدْح الحمام مرجِّعاً ... ويسقيهما كأس السحائب متَرعا

سليمَيْن من خَطْب الزمان إذا سطَا ... خليَّيْن من قول الحَسُود إذا سعى

ومن الشعر الذي قيل في مطالع قصائد المدح قول نور الدين العُسَيلي:

هل بالحمى مِن بُدور التمّ إمكانُ ... أم في خِلال بيوت الحي غزلان

أم الغواني تَهادَى وهي سافرة ... أم الشموس أقلّتهنّ أغصان

سقى الحمى ولياليه التي سَلفت ... من أدمعي ومن الوسميّ هتّان

ومنها في المدح:

إنّي امرؤ ما حيَيتُ الدهر أمدحُكم ... لعلّ جائزتي عفْوٌ وغفْرانُ

حسـنّت ظنـي ومـدحي فـيكمُ فعسـى يقـال إنّي عـلى الحـالين حسّـان

وقول الشهاب الخفاجي في مطلع قصيدة يمدح بها محمد بن القاسم الحلبي:

حتّـام يغـزوني صـدودُهْ والصـبرُ قـد كثـرتْ جُنـودُهْ

لم أدرِ: فـاترُ جَفنـهِ والخَصْـرُ أسـقَم أم عُهـوده

نسـوانُ يعبـث بي كـما عبثـت بآمـالي وعُـوده

ويلاحظ على الشاعرين أنهما قد أطالا الغزل في مطلع مدحهما، وأن الثاني قد ألحق بالغزل وصف مجلس اللهو والخمر، والتبس علينا الأمر فلا ندري: أهو يتغزل بفتاة أم غلام، لاستعماله ضمير المذكر، وقد أجاد في هذا الغزل طبعاً وسلاسة وصوراً وسهولة وحسن تعبير، ولم يأت فيه بشيء جديد من المعاني والصور غير تقليدي معروف، وأحسن التخلص إلى ممدوحه، وانتقل من متعة الكأس إلى حلاوة ذكر الممدوح، ومن أمثلة الغزل المقصود لذاته قول إبراهيم بن المبلّط:

حـدّثت بانـة الحمـى عـن صـباها عـن ثنيّـات مكّـةٍ عـن صَـفاها

أنّ عصـر اللقـاء آنَ ووافى وزمـان النـوى انقضـى وتنـاهى

ونسـيمَ الصـبا يـؤدي الأمانـا تِ إلى أهلهـا كـما قـد رواهـا

فهذه الأبيات تذوب رقة وعذوبة وتعبّر عن تجربة صحيحة وعاطفة صادقة، وقد أحسن الشاعر استغلال الحديث عن النسيم وربطه بربوع الحبيبة في مكّة وبأثره في نفسه وعلل أثره في العاشقين وأحسن السبك والتصوير والتعبير عن لواعج الحب والشوق والألم. ومما يتعلق بالغزل بالغلمان في هذا العهد ما قاله الطّالُوي:

بـــــالله يـــــا نشـــــر العبيـــــ ـــــر تـــرى بروضـــات الغَـــرِيّ

طـــــاف المشـــــاهدَ وانثنـــــى نشـــــوان مـــــن كـــــأسٍ رَوِيّ

ثـــم اشرحَـــنْ مـــن حـــال مُـــو لاه المحـــــــبِّ الطَـــــالوِيّ

مـــــاذا لَقِـــــي في ثَغْـــــرِ صيْـــــ ـــــدا مـــــن دَرُوزيّ غـــــوِيّ

وافى بمكتـــــــوب الشريـــــــ ـــــف إليـــه مـــن بلـــدٍ قَصـــيّ

يوصـــــــيه فيـــــه كـــــأنّما أوصـــــاه في أخـــــذ الصـــــبيّ

ويلاحظ أن أمير لبنان قرقماس لا يستحي في ذلك العهد من أخذ الصبي من صاحبه اغتصاباً لا لينقذه بل ليكون حالُه عنده حاله عند مالكه، وكذلك نرى أن الشاعر لا يستحي في أن يستشفع بالشريف الهاشمي الذي كان حينئذ أميراً على الشام في أن يرد له غلامه من قرقماس، وكأنه يطلب منه أن يردّ له داره أو زوجته الشرعية المغتصبة.

ومن الغزل الذي قيل في مجالس اللهو والغناء والمتعة ما قاله أبو المواهب البكري:

حبيبُـــــك دانٍ رقيـــــبٌ قريـــــبْ فـــماذا البكـــاء ومـــاذا النَحيـــبْ

نعـــــم هـــــو دانٍ ولكننـــــي بعيـــدٌ فقيـــد طريـــد غريـــبْ

بكـــــائي عـــــليّ لأنّي بُليـــــت بـــداء الصـــدود، وعـــزّ الطبيـــب

فالشاعر في هذه الأبيات يأسى على أن حبيبه دانٍ منه ولكنه بعيد عنه لأنه يهجره، ويبكي على أنّ المحبيّن ينالون ما يريدون دونه، ولكنه يتفاءل بأن هذه الحال ستتغيّر.

ونرى الشاعر في هذا العصر يجري على عادة الشعراء القدامى في الغزل والموافقة لعمود الشعر العربي الأصيل ويُبدي تذلّله للحبيب، ويرجوه الوصال مثال ذلك قول منجك:

ألقى فؤادي في أُوارِ قمرٌ يَتِيهُ في اسْكُدارِ

وأودُّ لو عَلِقَتْ بِذيْلِ الوعد منه يدُ انتظاري

أتراه يدري بالذي قاسيتُه أم غيرُ دارِ

أغدو به حيرانَ لا أدري يميني من يساري

في هذه الأبيات وصف لتمنع الحبيب ولشدة تعلق الشاعر به وسعيٌ إلى ترقيق قلبه عليه لكثرة ما يقاسيه من أجله، وأجمل ما فيها وصف حيرة الشاعر وضَياعهِ أمام جمال الحبيب وتمنعه حتى لا يعرف يمينه من يساره.

وأمّا المقطعات الغزليّة التي أكثروا منها فمثالها قول عبد الرحيم العباسي:

ألؤلؤٌ نظْم هذا الثغرِ أم حبَبُ وقرقفٌ طعْمُ ذاك الريقِ أم ضَرَبُ

وما أراه بصحن الخدّ ورّدها أم وجنةٌ بدم العشاق تختصِب

حشر الشاعر في هذين البيتين عدّة تشبيهات قديمة ولكنه أحسن جمعها وسبكها بصيغة التساؤل، واستعمل التشبيه الضمني المقلوب في البيت الثاني، فجعل صحن الخد هو الذي يورّد الخمر لا العكس. وفي الشطر الثاني معنى جميل ولكنه قديم وهو اكتساب الوجنة احمرارها من كثرة دم العشاق الذي أراقته.

وقد أورد الخفاجي للبوريني الأبيات التالية على أنها أسلوب من أساليب الفصاحة في كتابه ((حديقة السحر)) وهو نقل الكلام من طريق إلى آخر، كاستعمال ما عُهِد استعماله في الدعاء والمناجاة في التغزل:

إلهـــي أَدِمْ حـــاكِمَ الحـــبّ فينـــا مطاعـــاً وكـــلَّ البرايّـــا أُســـارى

إلهـــي وزدْ ذلـــك القـــدِّ لينـــاً وأَشرِبْ ســـقيمَ الجفـــون العُقـــارا

إلهـــي جنـــود الهـــوى أعطِهـــا عـــلى قـــوة الصـــابرين انتصـــارا

في هذه الأبيات جدّة في الروح والأسلوب والمناجاة العذبة والعاطفة فيها سخيّة حارة.

وقد استعمل شعراء هذا العهد الرباعيات في الغزل ومنها هذه الرباعية للشهاب الخفاجي في معنى قديم جديد:

غُصـــنٌ غـــضٌّ لـــه المعـــاني ثَمـــرُ يَجنـــي فيظـــلّ دائـــماً يعتـــذِرُ

لم ألـــقَ شـــبيه وجهِـــه في أحـــدٍ إلّا المِـــرآة صـــفَتْ، وفيهـــا نظـــروا

لقد جعل هذا الشاعر الحبيب غصناً يثمر المعاني الجميلة ويسيء دائماً إلى المحبّ ويواصل الاعتذار ولكن يحق له الدلال لأنه لا شبيه له إلا نفسه حين ينظر في المرآة، والمعنى طريف غير مبتذل، ولكنّه قد سبق إليه آخرون.